سنوات طويلة من الغضب

شعار (١) «الإمبريالية هي النتيجة الضرورية والمنطقية للعولمة»

(صموئيل هنتنجتون: الغرب: متفرد وليس عالمياً ـ Foreign affairs, 45/Nr. 6. P.41)

شعار (٢) «هناك مؤشرات تدل على أن الإسلام سيشكل في غضون السنوات القادمة خطراً عظيماً».

(رئيس جمعية حماية الدستور Peter Frisch بمجلة Der Spiegel 36/1997 p.58.)

ـ ١ ـ

بعد أن كونا صورة محيرة ومضطربة عن الغرب والشرق، علينا أن نتجه بأنظارنا إلى المستقبل لنجيب عن التساؤلات الآتية: ما التغيرات التي يجب أن تتم في كلا الجانبين؟ ما الذي يمكن أن يعلّمه أحدهما للآخر؟ وكيف يمكن لكل من الغرب والشرق أن يستفيد من الآخر؟

لكن هذه النظرة الإيجابية إلى المستقبل يحجبها ماض سيئ يمتد إلى سنوات طويلة من العلاقات بين الشرق والغرب، فما زالت الذاكرة الجمعية للشرق والغرب تحمل ذكريات لسنوات طويلة من الصراع والأحداث السيئة. وكل هذا يعرقل طريقاً يستهدف التوجه إلى مستقبل مشرق، يتسم بالتعاون والعلاقات الودية بين الشرق والغرب. ولن يحدث هذا إلا بعد إزاحة أنقاض علاقات الماضي ـ خصوصاً العاطفية منها ـ عن الطريق، ولا بد أن يتم هذا عن طريق دراسة تخلو من المحرمات كافة، أي دراسة تتطرق إلى جميع العناصر التي حكمت ـ ولا تزال تحكم

ـ العلاقة بين الشرق والغرب، حتى يمهد الطريق ليصيرا شريكين في صنع المستقبل.

سيحاول هذا الفصل أن يغوص في تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب ومواجهاتهما.

ـ ٢ ـ

من الجائز أن يؤَمِّن تعدد الآلهة السلام والاستقرار في هذا العالم أكثر مما يعززها الإيمان بإله واحد؛ لأنه في ظل تعدد الآلهة تستطيع كل قبيلة أو جماعة أو قومية أن تعكف على آلهتها، بينما يتضمن الإيمان بإله واحد منحى العالمية، أي أن يعم هذا الإيمان العالم كله، وبذلك يشكل خطورةً بأن يكون ذا طبيعة توسعية أو عدوانية.

إن المسيحية والإسلام دينا توحيد، ويحيطان البحر المتوسط كديانتين عالميتين، وهما بحكم طبيعتيهما هاتين يشكلان خطراً على بعضهما البعض، فكل منهما يريد أن يتوسع على حساب الآخر.

ولقد عبر چيڤارا عن هذه الفكرة عندما تحدث عن الشيوعية، وهي بطبيعتها فكر عالمي يستهدف الانتشار في العالم كله، وألا يكون مقصورًا على جماعة دون غيرها، فيقول شي چيڤارا: «لا نستطيع أن نَعدَ بألا نصدر نموذجنا إلى العالم؛ لأن نموذجنا هذا اخلاقي، والنماذج الأخلاقية لا تعَرف الحدود»[1].

---

(١) نقلاً عن، ص ٦ Intervention & Revolution, Richard Barnet - New York 1972,

ولقد عبر حسن الترابي عن الفكرة نفسها في حديثه عن الإسلام: «نحن نشكل ـ بهذا المعنى ـ خطرًا إذا ما انتقل نموذجنا هذا وانتشر»[٢].

أما الكنيسة المسيحية فقد عبرت عن هذه الفكرة منذ زمن بعيد في منطوق (تصريح) البابا Cyperian أنه «لا خلاص خارج الكنيسة» ولقد دفعت أعداد لا حصر لها من العبيد والهنود والجرمان حياتهم ثمنًا لهذا المنهج، كما ساعد هذا المنهج محاكم التفتيش الكاثوليكية على العمل مرتاحة الضمير. وإذا كانت دعوات التبشير الموجهة للمسلمين في شمالي إفريقية واجبًا دينيًا وعملاً صالحًا، من قِبَل القائمين على العمل بالكنيسة من الإخوة والأخوات البيض في شمالي إفريقية، فإن المسلمين يعدونهما عملاً عدوانيًا يتسم بالكثير من الصلف والتكبر. كذلك يعرف الإسلام منظمات للدعوة إلى الإسلام، وينظر إلى دعوته هذه على أنها عالمية لا يحدها زمان ولا مكان. فالإسلام، في النهاية، كمعناه الحرفي، أن تسلم نفسك لله، والإسلام كذلك دعوة توحيد تصلح لجمع الإنسانية حولها.

ولذلك، فالمسلم هو كل الإنسان يؤمن بالإله الواحد الأحد ويخضع له ويسلم به، سواء كان هذا الإنسان يدعو نفسه يهوديًا أو مسيحيًا أو مسلمًا؛ ولذلك فالقرآن يتحدث عن إبراهيم كمسلم في معناه الحقيقي الأوسع. ويُعَدُّ الإسلام تاريخيًا أحدث وآخر الديانات السماوية الموحدة التي أنزلت للبشر، ولكن عقائديًا وفكرياً فالإسلام أقدم هذه الديانات.

(٢) الترابي (١٩٩٢) ص ٧٢ .

فالقرآن يقول:﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧] .

عندما تحدث القرآن عن الإسلام في بعض آياته التي أنزلت في أوائل سنوات الوحي، كان المسلمون الأوائل يفسرون الكلمة حرفيًا، أي أن يسلم المرء نفسه لله (لم يفسروه بصفته هذا الدين الذي تطور على مر التاريخ، سأتناول هذا الرأي عن قرب في الفصل الأخير من الكتاب).

وإذا ما تناولنا الإسلام بعيدًا عن معناه الحقيقي ودون ترجمة معناه المبدئي والأصلي، فإننا نجازف بإقحام فكرة مخيفة عليه ألا وهي (لا نجاة للإنسان خارج شرائع الإسلام) وبذلك نهيئ المسلم لمواجهة دينية وعسكرية. لقد عَدَّ المسلمون منذ البدايات رسالتهم مهمة عالمية. ويتضح هذا في عام ٦٢٨، أي قبل فتح مكة، وذلك عندما بعث محمد برسائله إلى حكام الممالك التي تحيط به، مثل قيصر بيزنطة هيراقليوس، والشاه الساساني في فارس، والمقوقس بطريرك الكنيسة القبطية بالإسكندرية (هذا الكتاب الذي كتب على جلد، محفوظ حتى الآن بأحد متاحف إستنبول). ولقد فسرت دعوة محمد بقبول الإسلام كطريق هداية بوصفها تطاولاً واستفزازاً لا يغتفر (لم يتغير الكثير في هذا الشأن كما يتضح لنا من رد الفعل القاسي الذي تتلقاه فكرة رفع الأذان على منارة أحد المساجد في ألمانيا)[٣].

(٣) انظر برنامج بتاريخ ١٩٩٦/٢/٢٤ يصور رد فعل سكان مدينة Dillenburg على رغبة المسلمين المقيمين فيها والذي يبلغ عددهم ٢١٠٠ نسمة في أن يبلغ صوت الأذان ٦٠ ديسبيل. لقد صدرت الشكاوى من مواطنين لم يسمعوا صوت الأذان أبدًا!؟

ومنذ اللحظة التي بعثت فيها هذه الرسائل بدأ خروج الإسلام من المحلية إلى العالمية. قسم المسلمون العالم إلى قسمين: «دار الإسلام» وبقية الإسلام التي لا يسودها الإسلام بعد، ولم تؤمن به. ولم يقسموه إلى عالم شرقي أو غربي ولم يأخذوا بأي تقسيمات جغرافية أو سياسية. ولقد صاحب توسع الإسلام في مناطق ذات ثقافات مختلفة ـ مثل شمالي إفريقيا وإسبانيا والأناضول ـ مشكلات عدة لعالميته، كما حدث للمسيحية من قبل.

لقد لاحت ـ من ناحية ـ خطورة أن يتحول الإسلام إلى دين قبلي للعرب فقط على نهج اليهودية. وساعد على هذا أن منصب الخليفة ظل إلى ما قبل السلطان سليم الأول حكراً على عربي من أصول قرشية. كما أخذ بعض العرب في معاملة من اعتنق الإسلام حديثًا من البلدان الأخرى، على أنهم مسلمون من الدرجة الثانية. ولقد أدت التفرقة في السنوات الأولى للدولة الإسلامية (أيام الدولة الأموية) في المعاملة وتفضيل العرب على غيرهم إلى ظهور حركات معادية للعرب عرفت بالحركات الشعوبية (انظر لمزيد من التفاصيل الفصل: صور وألوان). وعلى الجانب الآخر كان هناك خطر يهدد الإسلام يتمثل في استيعابه لتأثيرات غريبة عنه ـ مثله مثل المسيحية من قبل ـ مثل الأفلاطونية الجديدة، والمانوية (نسبة إلى أحد دعاة الدين في فارس عاش (٢١٦ ـ ٢٧٦)، والزرادشتية والغنوصية وغيرها من الاتجاهات الفلسفية والمعرفية العديدة. كان يمكن للإسلام أن يأخذ ـ في محاولاته أن يكون عالمياً ومن خلال توسعاته الكثيرة بمبدأ التوفيق والتلفيق بين اتجاهات عدة، ويتحول بذلك إلى دين شرقي مُخلط.

أما عدم وجود مقابل إسلامي لباولوسي (باولوسي الإنجليي) ويوحنا ماركيون وأوجوستينوس أو ديونيسيوس أروباجيتا، بالرغم من وجود أمثال الفارابي (٨٧٠ ـ ٩٥٠) وابن عربي (١١٦٥ ـ ١٢٤٠) ـ فيرجع إلى ما يلي: النتيجة التي آل إليها الخلاف الفلسفي في القرنين التاسع والعاشر ببغداد.

لقد استسلم المعتزلة ـ المتأثرون بالفلسفة الإغريقية ـ لنقد الأشاعرة المتطرف، والذي لا يقبل أي حلول وسط مع مدرسة أخرى. لقد انتصر ذلك الاتجاه ـ يسنده ويعضده الاتجاه الأدبي الشائع، وكذلك المحدثون وأهل السنة ـ الذي يعرف الآن حتى يومنا هذا بالاتجاه التقليدي، وهو اتجاه يعادي الفلسفة والتصوف بقسوة وصرامة. وامتد هذا الاتجاه إلى يومنا هذا يعضده المذهب الحنبلي ويزكيه الاتجاه الوهابي في السعودية.

لقد كان مبدأ التسامح الديني أساسًا يرتكز عليه الإسلام في دعوته للعالمية، حيث إنه: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] . وهذا الأمر يستنكر، بل لا يجيز إجبار إنسان على اعتناق دين لا يرضاه بالقوة. كما ساعد على انتشار الإسلام عالمياً قبول الإسلام بتعدد الديانات، والذي يتمثل في أبلغ وأجل صورة في سورة المائدة، الآيات: ٤٣ – ٤٧ ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

وبفضل هذا التسامح الديني تعايش وتقبل المسلمون الديانات الأخرى وأتباعها، وهم يفعلون ذلك إلى الآن، ولم يحتذوا بالمثال المسيحي ـ لنذكر

بونيفاتيوس في جرمانيا، ومحاكم التفتيش في إسبانيا على سبيل المثال ـ الذي أجبر أتباع ديانات أخرى بالقوة على اعتناق المسيحية، وجازفوا بذلك باحتيال هؤلاء عليهم في نهاية الأمر.

ويتجسد التسامح الديني ـ هذا الأمر الذي ينص عليه القرآن ـ في مظاهر متعددة، مثل بقاء اليونان على مسيحيتها بالرغم من حكم الأتراك العثمانيين المسلمين لها لما يزيد على ٥٠٠ عام، وكذلك مشاهدة المرء في القاهرة وهو في طريقه من المطار لكنائس تفوق أعدادها أعداد مثيلتها من المساجد. أما رؤيتك للكتاب المقدس وهو معروض في واجهات المكتبات في المغرب وإضاءة الصليب الذي يعلو الكنائس ليلاً بأضواء النيون في دمشق، فليست آخر هذه المظاهر، ولكنها ـ أي كل هذه المظاهر ـ إنما تمثل الجانب الإنساني من أمر التسامح الديني.

أما الجانب الآخر لهذا الأمر، فهو قدرة الإسلام على الاحتفاظ ببقائه ـ دون ذوبانه في الآخر ـ حتى في ظل عالميته. وهذا هو السبب الذي دفع الغرب منذ العصور القديمة (Antjke) المتأخرة ـ (أي ما قبل العصور الوسطى) ـ إلى النظر إلى الإسلام ـ برغم تعدده وتنوعه الداخلي ـ على أنه شكل وكيان ذو صبغة واحدة، ونظام صارم لا يعرف المرونة، يخشاه الغرب ويخافه.

هذا هو الوصف الدقيق للمشاعر التي حكمت علاقة الإسلام بالغرب، منذ القدم وإلى يومنا هذا، الرعب والخوف. لقد بدأ هذا منذ التوسع المذهل للإسلام في القرنين السابع والثامن الميلاديين، هذا

التوسع الذي ما زال يذهلنا حتى يومنا هذا، ولا نفهم أسبابه. ولكن ما كان للمحاربين العرب الذين لم يتعد تعدادهم عشرة آلاف أن يحققوا كل هذا النجاح ـ رغم حماستهم الدينية واستهانتهم بالموت، بل طلبهم إياه لنيل الشهادة ـ إلا أن مواطني بيزنطة وفارس لجؤوا إلى المسلمين واعتنقوا الإسلام بأعداد هائلة لثلاثة أسباب هي:

ـ التسامح الديني.

ـ نظام الضرائب وممارستهم لإدارة شؤون البلاد التي كانت أقل وحشية واستغلالاً ممن سبقوهم،ومحاولتهم لإقرار العدل في شؤون البلاد.

ـ كان التصور الإسلامي لصورة الإله ـ خاصة فيما يتعلق بالمسيحية (أي المسيح والله) أقرب إلى تصور الكثيرين من المسيحيين غير المؤمنين بالتصور الذي تعتنقه الكنيسة الرسمية وتجيزه، مثل: الأريانيين (جماعة تنكر أن المسيح هو الله، ونسبوا إلى أريوس الذي اعتنق هذا الفكر).

لم يستطع العالم المسيحي سواء في روما أو القسطنطينية ـ (في العالم الغربي أو الشرقي المسيحي) ـ أن يتفهم هذا، ولم يفهموا الإسلام في سياق التاريخ الديني وما يمثله الإسلام فيه. فلقد كان الإسلام أولى محاولات الإصلاح للمسيحية، أي محاولة إعادة المسيحية إلى جذورها الحنيفية الأولى. وبدلاً من تفهم هذه الحقيقة، أخذ الغرب ينشر أسطورة وأكذوبة توسع الإسلام «بالنار والسيف» حتى إنهم نسبوا إلى أولئك المسلمين المتوحشين إحراق مكتبة الإسكندرية الشهيرة [٤]. كل هذا

(٤) وهو الاتهام الذي ثبت علمياً عدم صحته بالمرة، ولكنه لا يزال يتردد بأن المسلمين أحرقوا مكتبة الإسكندرية الشهيرة بأمر من الخليفة عمر انظر Hunke (١٩٩١) ص ٨٥/٦ .

ليدافعوا عن أنفسهم وعن شعورهم بالتميز، ذلك الشعور الذي يهاجمه الإسلام، بل يضربه في مقتل.

هذه الاتهامات ما هي إلا تزوير للحقيقة، ومع هذا فهي تفسير دائم لهذا الخوف من الإسلام والذي يظهر إلى يومنا هذا عندما ينسب العنف إلى الإسلام، وتجده واضحاً في معالجة وسائل الإعلام المختلفة في الغرب للأحداث مثل التي تقع في مصر والجزائر.

لقد تأثر الغرب بالازدهار الثقافي والعلمي للحضارة وإنجازاتها، في مراكزها المختلفة، سواء في بغداد في العصر العباسي أو قرطبة تحت حكم الأمويين، خاصة عن طريق من عاش من علماء المسلمين في الأندلس، مثل: ابن رشد وابن حزم وابن عربي.ولقد امتد تأثير الحضارة الإسلامية عامة ـ وأولئك العلماء خاصة ـ على الغرب إلى مجالات عدة، مثل علم الكلام والفلسفة اللاهوتية، وشعر الغزل والغناء، وإلى العمارة القوطية، وإلى مجالات الصحة والطب والرياضيات وإلى التصوف المسيحي. ولم تمنع الحروب الصليبية تأثيرات هذه الحضارة. وبالرغم من ذلك، فالآن، لا يُعَدّ في الغرب الجهل بهذا الازدهار لهذه الحضارة العظيمة ثغرة ثقافية أو نقص معلومات، فكل الذي انطبع من الإسلام في أذهان الغربيين على مر العصور هو المعارك الحربية، مثل: الحروب الصليبية وحروب الأتراك العثمانيين التي أوصلتهم إلى أبواب فيينا، وليس الازدهار الحضاري والثقافي للإسلام وفضله على حضارة الغرب وتقدمه، وإلا لما بدا الإسلام لماكس فيبر (Max Weber) كدين حرب[٥].

(٥) نقلاً عن Salvatore ص ١٠٢ .

لم يصل الأتراك إلى ڤيينا فقط. بل هدد بعض فرسانهم الأجزاء الجنوبية من باڤاريا. لقد هدد الأتراك في هذا الوقت كل أوروبا، وقد كان الإسلام دينهم، وذلك يفسر عنوان أولى ترجمات القرآن إلى اللغة الألمانية حيث أسماها المترجم Salomon Schweigger عام ١٦١٦ «قرآن الأتراك: دين وخرافات»[٦]. أما الترجمة الثانية لمترجميها Johann Lange (١٦٨٨) فقد حملت عنوان: «كتاب الأحكام التركي الكامل أو قرآن محمد».

نجد هذا الارتباط بين الدين الإسلامي والخطر العثماني كذلك في ترجمة القرآن التي استعان بها الشاعر جوته في أعماله الشعرية. فقد كانت هذه الترجمة بعنوان «كتاب الأتراك المقدس» ١٧٧٢ للمترجم David Friedrich Megerlin.

أما في زماننا هذا، فلم يأت الأتراك إلى ڤيينا فقط، بل إلى Kreuz-berg كرويتسبرج، ولكنهم لا يحملون سيوفًا ولكن تأشيرات عمل مصدق عليها من قنصليات في إستنبول وأنقرة وأزمير، حتى تقابلهم أنت وتلقاهم كبشر جيران لك، وزملاء عمل أو زملاء دراسة.

ولكن هذا لم يؤد إلى زوال الخوف من الأتراك، بل ظل هذا الخوف على حاله يعشش في نفوس الغربيين، ويؤدي بالتالي إلى أن يفرض الأتراك العزلة على أنفسهم.

ولذلك لا تندهش إذا قرأت عن فشل محاولات دمج الأتراك في بلاد

---

(٦) لقد تمت هذه الترجمة بفضل مارتن لوثر مع إضافات المقدمة التي كتبها Melanchthon، وطبعت في بازل عام ١٥٤٣، وهناك نسخة منها في بيت القرآن في المنامة.

أوروبا التي استوطنوها منذ أجيال، أو عندما تقرأ عن رفض المجلس الأوروبي لضم تركيا إليه ومنحها عضويته؛ لأن كل هذا يحدث بتأثير الذاكرة الجمعية للشعوب، فالأتراك يشكلون خطراً، وبالإضافة إلى ذلك فهم مسلمون.

ما زالت العقلية التي نتجت عن الحروب الصليبية تشكل وتحدد العلاقات المشتركة بين الغرب والإسلام.

لقد أثبت كل من Norama Daniel في كتابه الذي يبعث على الاكتئاب (Islam and the West - Making of Image) وClaude Cahen في كتابه عن تاريخ الحروب الصليبية، أن آباء ومؤسسي فكرة الحروب الصليبية استعانوا لإشعال الكره ضد كل ما هو إسلامي - خاصة ضد محمد - استعانوا لتحقيق هذا بحملة متقنة لنشر الجهل بكل ما هو إسلامي، وحجب كل المعلومات الصحيحة، ونشر معلومات مغلوطة بين الناس.

فبالرغم من وجود ترجمة سليمة في جوهرها للقرآن إلى اللغة اللاتينية منذ عام ١١٤٣ (قام بهذه الترجمة كل من Robertus Ketenesis Hermanus Dalmata. بتكليف من رئيس دير Petrus Venerablilis Clyny المتوفى عام ١١٥٦)، فإن ما قيل للفرسان الصليبيين بخصوص إيمان المسلمين بإله واحد أحد أي «لا إله إلا الله» حُوِّرَ إلى «لا إله إلا محمد» (Non est Deus nisi Mahometus). لقد صُور محمد للفرسان على أنه ساحر، أو صنم، حتى قيل: إنه كاردينال أصابه الفشل ومن ثم كان حقده على المسيحية عندما لم يتم اختياره لكرسي البابوية !

لم يتعامل الفرسان الصليبيون مع الإسلام على أنه دين آخر، بل على أنه خروج على المسيحية، وابتعاد عن تعاليمها الأصلية يجب محاربته بكل الطرق. حتى أبشعها ـ والتي شملت كل الفظائع وحمامات الدم وَشَيِّ أطفال المسلمين، بل وأكل لحومهم (وفق مراجع تاريخية غربية) عندما اقتحموا كلا من القدس (١٠٩٩) ودمياط (١٢١٩).

لقد مرت ٢٠٠ عام من الحروب دون أن ينتصر العالم الغربي على العالم الإسلامي، وكذلك دون إبداء أي محاولة لفهمه إلا بعض الاستثناءات القليلة، مثل القديس فرانسيسكوس والقيصر فريدريك الثاني، اللذين تأثرا بثقافة وتقوى وتسامح سلطان القدس الملك الكامل (أحدهما ١٢١٦ والآخر ١٢٢٩). ولم يغير رأي هذين الشخصين من موقف الغالبية في الغرب تجاه الإسلام، كما لم ينجح في ذلك من بعدهما ليون الإفريقي أو الحسن بن محمد الوزان (١٤٩٠ـ١٥٥٠) الرحالة بين عالمين وديانتين.

لقد نسبت ـ منذ ذلك الوقت ـ صفات إلى الرسول ونُعت بمفردات يستخدمها سلمان رشدي اليوم. كان محمد ﷺ وما زال إلى يومنا هذا عرضة لكل اتهام يلصق به دون أن يتعرض من يتفوه بكل بذاءة ضده لأدنى عقاب، ولا تعد إهانة مشاعر ١,٢ مليار مسلم وجرحها بسب نبيهم وتشويهه من الأخطاء السياسية.

ولقد أقرت آن ماري شمل Anne Marie Schimmel وذلك عن حق. ما يلي: «أثار محمد ـ أكثر من غيره من الشخصيات التاريخية ـ الذعر والكره

obeikandi.com

بل والاحتقار لشخصه في العالم المسيحي. وما زعمُ دانتي من أن محمداً في الجحيم. ولعنه إياه - أي لمحمد - إلا تعبيراً عن شعور عدد لا يحصى من مسيحيي العصور الوسطى»[٧]. وإلى يومنا هذا، تخجل الكنيسة الكاثوليكية وتخشى أن تعترف بمحمد قائداً للإسلام - الذي اعترفت به - كإحدى طرق النجاة. وهذا يثير العجب، إذا إن العالم الأمريكي مايكل هارت وضع محمداً على رأس قائمة الـ ١٠٠ شخصية التي أثرت في تاريخ البشرية.

كانت تجربة الحروب الصليبية مع الشرق المسلم صدمة تبعتها نتائج عديدة.

فلقد بدؤوا مسيرتهم الخطرة إلى المدينة المقدسة بحملة اضطهاد لليهود في منطقة الراين. وعندما وصلوا إلى المدينة المقدسة واستولوا على القدس عام ١٠٩٩ سالت حمامات دماء أهلها بشكل وحشي لا يمكن تخيله حتى يومنا هذا. أما في عامي ١٤٠٣/١٤٠٤ فنهبوا مدينة القسطنطينية المسيحية الشرقية وعاثوا فيها فساداً، لاعتقادهم أنها مدينة خارجة عن الكنيسة الكاثوليكية وتعاليمها.

(لم تشهد مدينة إستنبول المسيحية قبل هذا التاريخ أو بعده أضراراً وأهوالاً كالتي لاقتها على أيدي الفرسان الصليبيين).

ولم يستطع الكثيرون منهم إغفال حقيقة وهي أن هؤلاء البرابرة المتوحشين الذين أتوا لمحاربتهم يفوقونهم تحضراً ورقياً في نواح عديدة،

---

(٧) Und Mohamadad ist sein Prophet: Schimmel ومحمد رسوله ص ٧، ١٩٨١ ميونخ، Eugen Diederichs

على رأسها الجانب الأخلاقي؛ ولهذه الأسباب ظلت ذكرى صلاح الدين البطل المسلم الكردي سلطان العرب حية كأسطورة في ذاكرة الغرب.

لقد تركت الحروب الصليبية في الغرب ذكرى مؤلمة تجوب في مخيلة أهله.

كما خلفت هذه الحروب في خيال الغرب ذكريات تشمل حياة الشرق، وبخاصة الجانب الجنسي منها. إنني شخصياً ألمح الارتباط بهذا الماضي وذكراه في صورة الشرق الحسية في منظور غربي والتي نجد أبرز انعكاس لها في أفلام هولي وود عن الشرق.

ولا يستطيع المرء أن ينكر صحة تحليل إدوارد سعيد القائل بأن الصورة الغربية للشرق هي في جزء منها نتيجة لانعكاس رغبات وإسقاطات لا يعترف الغرب بأنه يكنها في نفسه ويشعر بها.

أما بالنسبة للشرق، فلقد كانت نتائج الحروب الصليبية في مجملها أقل قسوة، حيث كان النصر في آخر الأمر حليف الشرق. استمر هذا الاعتقاد حتى أيقنت شعوب الشرق مع كابوس الاحتلال في العصور الحديثة بأن الحروب الصليبية لا تزال مستمرة بشكل دنيوي إلى يومنا هذا.

فما إن انتهت الحروب الصليبية بشكلها التقليدي، حتى تعرض المسلمون واليهود لعملية تطهير عرقي في إسبانيا الشديدة التعصب للكاثوليكية، استهدفت طردهم من إسبانيا التي ظلت لمدة ٨٠٠ عام تحت حكم المسلمين.

وبعدها حاول ملك البرتغال الشاب Sebastiao أن يفرض المسيحية على المغرب قبل أن يفقد حياته في معركة الملوك الثلاثة عام ١٥٧٨ في قصره الكبير، ووقعت بلاده نتيجة لذلك في أيدي إسبانيا.

وبعد ذلك دفعت فكرة حملة فرنسية تحت زعم «تحضير» مصر بنابليون إلى أن يأتي إلى مصر ويدعى أنه حامي الإسلام. وبعدها بوقت قصير احتل الفرنسيون الجزائر عام ١٨٣٠ . وتطل آثارهم المتمثلة في كنائس متفاخرة أمثال كاتدرائية (Nôtre Dâme d'Afrique) في كل ربوع المغرب العربي مثل تونس، عنابة، والجزائر العاصمة ووهران والرباط والدار البيضاء.

ويذهل المرء عندما يقرأ أن ملك اليونان عندما حاول فرض المسيحية على المناطق خارج ميناء أزمير ١٩٢٢، حرص على أن تطأ قدماه الأرض التي وطأها الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد في الحرب الصليبية الثالثة عام ١١٩٠ .

ولقد كانت حرب البوسنة ومعارك إبادة مسلمي وألبان كوسوفا حروبًا دينية من وجهة نظر الصرب واليونان، كانت حروبًا صليبية متأخرة للقضاء على آخر الآثار الإسلامية في البلقان (بالمناسبة يحظر في البلدين بناء مساجد).

هي حقيقة وواقع لا ينكر: لم تنته الحروب الصليبية حتى يومنا هذا من وجهة نظر المسلمين، حتى وإن لم يظهر الفرسان الصليبيون اليوم بدروعهم الحربية، بل في بدلة رجل الأعمال. (لا يعاني العالم الإسلامي وحده من ذلك. فلقد ذكر منذ فترة وجيزة أن أحد السفراء الأمريكيين قال لزميله الياباني الذي أصابه الذهول: «إن لغتكم الصعبة تمثل عقبة تجارية غير متفق عليها»، أي يجب إزالتها طبقًا للوائح منظمة التجارة العالمية WTO)[٨].

(٨) انظر FAZ ١٩٩٧/١١/٢١ تحت عنوان: آلام وهمية للفن ـ حوار ثقافي في زمن العولمة».

ولقد استمر الغرب يستبيح انتقاد الإسلام حتى في سياق غير ديني. فعلى العالم الإسلامي أن يختار بين المسيحية أو الأسلوب الأمريكي للحياة. ولقد عبر Karl May عن هذا الموقف في كتبه التي صاغت عقلية الألمان عن الشرق والإسلام.

لقد أثبت شاكر الرفاعي في رسالته لنيل درجة الدكتوراه في بوان، أن كارل ماي كان يكتب بتكليف من الكنيسة، وأنه قال على لسان إحدى شخصياته ـ برغم علمه بصحة موقف الإسلام وتعارضه لما قال ـ إن المسلم يعتقد «أن المرأة لا تملك روحًا». لقد توصل الرفاعي إلى أن كارل ماي ـ على عكس رواياته عن الهنود الحمر ـ يصور في رواياته عن الشرق الأخيار على أنهم فقط المسيحيون. «والقلة القليلة من الأخيار من المسلمين تتحول في النهاية إلى اعتناق المسيحية»(٩).

ومن لا يكتفي بكل المؤشرات التي سبق ذكرها فليتعمق في نسق الفكر الحتمي لفرانسيس فوكوياما وإستراتيجيات استبعاد الإسلام التي يتبناها صاموئيل هنتجتون في عصرنا الراهن.

يُعدّ المسلمون مثل هذا التفكير إمبريالية ثقافية، لأنه ـ كما كان الوضع بالنسبة للصليبيين ـ ينطلق من فكرتين: أولاهما، تفوق العالم الغربي بنموذجه الحتمي المتقدم، وثانيتهما: حق العالم الغربي، بل واجبه، أن يرتبط باقي العالم به ويتبعه. يمكننا أن نلخص هذا الفكر في المقولة الساخرة: The West ... and the Rest هذا التفكير يبعث الخوف في

(٩) نقلاً عن نور رقم ١٩ - ٢٠ كولونيا يوليو ١٩٧٩ ص ٣٦ .

نفوس المسلمين، حيث يمثل لهم خطر تهميشهم أو حتى استبعادهم من منظومة العالم.

وهذا التفكير ليس بالتفكير الجديد أو الحديث، بل إنه يعكس تفكير المستشرقين في أسوأ صورة كما اعتنقه ومارسه مستشرقون بريطانيون وفرنسيون وهولنديون في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

ولقد خدموا مصالح القوى الاستعمارية، مثلهم مثل شخصية لورانس العرب[١٠] الشهيرة. ولقد عمل هؤلاء المستشرقون ـ المنتفعون بلا شك ـ على زيادة المعرفة بالإسلام ـ للجهات التي خدموها ـ ولكنهم عرقلوا المعرفة الحقيقية ومنعوا العلم بها عن عامة الناس بسبب الأحكام المسبقة ضد الإسلام.

لم يقتنع أحد في هذا الوقت بالحكمة القائلة: «إن النور يشع من الشرق»، بل اعتقد الكثيرون أنهم يشهدون المرحلة الأخيرة في حياة الإسلام، الذي يوشك على الانقراض. حتى إن Max Henning كتب في مقدمة ترجمته للقرآن عام ١٩٠١: «يبدو أن الإسلام قد استنفد دوره السياسي». ولم يكن أحد ليستطيع أن يعارضه مستنداً إلى حجج منطقية وواقعية.

---

(١٠) لقد خلق لورانس العرب T.E Lawrence (١٨٨٨ ـ ١٩٣٥) بكتابه (أعمدة الحكمة السبعة» Doubleday: Garden City, NY. 1935. أسطورة عن نفسه. فلم يكن قدره أو مكانته كمتخصص في علوم الإسلام وخبير باللغة العربية وآدابها، أو مكتشف ومستشار سياسي يبلغ قدر أو مكانة Harry St. John Philby (١٨٨٥ ـ ١٩٦٠) ولا Leopold Weiss (محمد أسد).

لقد قام عدد من المستشرقين الألمان من بينهم Carl Becher وGustave von Grunebaum بوصف الإسلام من منطلق إبراز ما يفتقده الإسلام حتى يصبح أوروبيًا. فلقد توصل Grunebaum إلى النتيجة التي لا يصدقها عقل، وهي أن الحضارة الإسلامية لا تشارك الحضارة الغربية في رؤياها الجوهرية، وأن هذه الحضارة لا تهتم بتحليل ذاتها ولا تهتم بدراسة الحضارات الأخرى (١١).

وأبلغ مثال على أن المغالطات التاريخية المستقرة في الأذهان والوجدان يمكن أن تستمر إلى يومنا هذا هو ما اتضح أخيراً عندما ادعى الأستاذ Petersteinacke رئيس الكنيسة الإنجيلية بمقاطعة Hessen und Nassau عام ١٩٩٦ في حديث أذيع بالتلفيزيون الألماني أن الإله الذي يعبده المسلمون غير الإله الذي يعبده المسيحيون. ولك أن تتخيل معنى هذا الكلام، خاصة إذا تفوه به إنسان موحد غير مشرك: فإذا كان هناك إله واحد فقط، وهو ليس الإله الذي يعبده المسلمون، فإن إلههم ـ أي إله المسلمين ـ ليس بإله بل هو وثن. كانت معلومات Goethe وLessing وفريدريك الأكبر صحيحة في هذا الشأن.

وهل يندهش المرء إذن حين يقرأ في مجلة Bunte موضوعاً عام ١٩٩٨ يتساءل فيه كاتبه بلاغياً: «هل انتقل الخطر الآن من موسكو إلى مكة؟». وما زالت هناك فصول جديدة تكتب في تاريخ العلاقة بين الغرب والإسلام. لقد كان الإسلام منذ بدايته يضع صوب عينيه الانتشار في

(١١) نقلاً عن Salvatore ص ١٢١ .

العالم أجمع هدفًا له. ولقد تحقق له هذا على الأخص في وقتنا هذا بفضل الثورة التكنولوجية في وسائل الانتقال والاتصال والمعلومات والعولمة الاقتصادية التي نتجت عن هذا، فلقد أدى هذا ضمن ما أدى إلى ما يكون للإسلام مواقع عديدة على الإنترنت، بحيث يستطيع أي إنسان أن يطلع على سنَّة الرسول كاملة، وعلى القرآن في أي لغة يرغبها بمجرد لمسه مفتاحاً.

ويبدو أن الإسلام قد وجد لنفسه موضعاً رصيناً وعميقًا في أمريكا وغربي أوروبا، خاصة بعد سبعينيات القرن. وهذا الوجود الذي ترسخ بمرور الوقت يُعَدُّ نقله وقفزة نوعية في العلاقات الثنائية، أي علاقات الإسلام بالغرب. فلقد أصبح الإسلام، حتى في ألمانيا ـ سواء باعتراف حكومي أم لا ـ ظاهرة دائمة[١٢]، متمثلة كذلك في الـ ٢٥٧٨ مسجداً حسب إحصائيات مجلة Der Spiegel.

يتضح أن المسلمين الذين يستوطنون ألمانيا يتأقلمون، ولكنهم لا يذوبون ولا تضيع هويتهم الأصلية. ولقد تكونت على مر الوقت صورة تشمل ثلاثة أجيال تشترك في خصائص واحدة إن لم تكن تتطابق في كل من فرنسا وإنجلترا وألمانيا.

يكون الجيل الأول عادة أقل تمسكًا بدينه عندما يصل بلد المهجر، ثم يعود إلى التمسك بعقيدته؛ لأنها تمثل له في الغربة جزءاً من الوطن وترابطًا اجتماعيًا. ويمكن أن يكون ذلك رد فعل يتسم بالعناد تجاه التفرقة التي يتعرض لها في بلد المهجر، وتؤدي الحرية التي يعيشها

(١٢) Der Spiegel عدد خاص ١٩٩٨/١ ص ١١٠ .

المسلم للتعرف على دينه وممارسته دون وصاية ورقابة حكومية واضطهاد في أول الأمر دوراً إيجابيًا.

ولا يعود الجيل الأول ـ كما خطط ـ لموطنه؛ لأن الجيل الثاني لا يرغب في هذا الجيل، أي الجيل الثاني، يعيش بين عالمين ويدفع غالبًا ضريبة (ثمن) تجربة الهجرة؛ لأن هذا الجيل غير مرغوب فيه ولا يتمتع بفرص إيجابية، سواء في وطنه أو بلد المهجر، خاصة أنه لا يتقن أياً من اللغتين. وهذا الجيل هو الجيل الذي يتهدده الخطر، حيث يحاول جاهداً أن ينال القبول والاعتراف به، ويبدو له الإسلام في هذا الصدد عائقاً خاصة فيما يتعلق بعلاقة الجنسين.

وتبدو الصورة تمامًا بالنسبة للجيل الثالث، خاصة فيما ينتظره في المستقبل. وهذا الجيل يمثل أهمية بالغة لمستقبل الإسلام.

هذا الجيل يسكن الغرب ويتحدث اللغتين، اللغة الأم ولغة المهجر بطلاقة؛ لذلك فجميع فرص التأقلم مهيأة له. ولكن هذا الجيل يتضح له أن الأمر ليس كما تصور؛ لأنه «مختلف» بسبب لون البشرة والعيون والشعر وبسبب الاسم أو لأنهم مسلمون. وانطلاقاً من هذا الوضع يقول هذا الجيل بعناد بالغ: «إذا كنتم تعتقدون أننا مختلفون، إذًا فنحن مختلفون ولسنا مثلكم». ويمارسون اختلافهم هذا ويشكلون تنظيمات ولا يقبلون التفريط في حقوقهم، ولا أن يسلبهم أحد لقمة العيش وأسباب الحياة. وتجد بين هؤلاء الشباب مسلمين في غاية النشاط وعلى استعداد تام للعمل على نشر الدعوة والتضحية من أجل هذا الهدف أكثر مما تجد

بين الجيلين السابقين. وهؤلاء يتولون مسؤولية مراكز إدارتها كما هو الوضع في مدينة Achen آخن.

أما الأتراك فيمثلون استثناءً ملحوظًا في هذا الشأن؛ فالجيل الثالث من الأتراك يظل في معظم الأحوال معلق الأنظار بتركيا، وبالتالي يعيش في ألمانيا كما لو كان في محطة، ولا يمارس دعوته إلا بين الأتراك، وبالتالي لا يؤثرون في بيئتهم بمفهومها الأوسع.

أما بين المهاجرين العرب، فلا تجد أثراً لهذا السلوك، خاصة أن أعداداً هائلة منهم ـ على الأقل في ألمانيا ـ من الأكاديميين.

ولقد أدى هذا التوسع للإسلام بانتشار المسلمين في أنحاء العالم كافة إلى وجود تجمعات إسلامية في كوريا واليابان وبوليفيا والأرجنتين والبرازيل وجزر المالذيف وكرواتيا وإسبانيا، وأوكرانيا وفنلندا وتايلاند وسنغافورة.

ومن يرغب في معايشة هذا الجو فله أن يحضر المؤتمر الدولي السنوي الذي يقيمه المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر في القاهرة، حيث يمثل أكثر من ثمانين دولة.

ـ ٣ ـ

هذا هو تاريخ علاقة الإسلام بالغرب التي تعود إلى ألف وثلاثمائة عام، منها كثير من سنوات الغضب، بل والحروب. ولقد بدأت العلاقات والغرب ينظر إلى الإسلام على أنه خطر، وتحول بعد ذلك لما يزيد على ٢٥٠ عاماً إلى مجرد مشكلة ثم عاد في منتصف القرن العشرين ليطل ـ من وجهة نظر الغرب ـ كخطر مرة أخرى. ويمتد تأثير المشاعر

المضطربة والمظالم والمعلومات المغلوطة إلى يومنا هذا. وكل هذا ما زال يموج تحت السطح. وتمثل الذاكرة الجمعية حقيقة سياسية ذات تأثير بالغ حتى بكل ما تحمله من أخطاء ومغالطات.

لقد وصف Wilfred Cantwell Smith هذا التلازم كما يلي: «لقد خَبر الغرب عداءً تجاه الإسلام لألف سنة ماضية. هذا العداء يسيء الكثيرون تقدير عمقه وطول دوامه. لم يتبين الوعي الغربي كلا من الهند والصين ومخاطرهما إلا بعد زوال كل ما يمكن أن يخيف الغرب. أما الإسلام فقد كان يمثل دائماً وأبداً خطراً يهدد الغرب. وإذا ما قارنا أفكارنا ومشاعر الغرب المعادية للإسلام، نجد أن مشاعر الغرب المعادية للشيوعية كانت أقل حدة وأقصر عمرًا»[١٣]. وتؤدي الذاكرة الجمعية وهذا التزامل دوراً أساسياً عندما يحذر أتباع اتجاه الوسط المسيحي في منشوراتهم من خطر أسلمة ألمانيا. وعندما يتم إشعال الحرائق في مراكز إسلامية، وعندما تتلقى شخصيات ألمانية أسلمة نشطة بلاغات تهديد من مجهولين، فقد كان يمكننا أن نَعُدَّ كل هذا من قبيل ضيق الأفق والتصرفات الرعناء التي لا أمل لها في المستقبل، لولا أن وسائل الإعلام تعمل جاهدة على إشعال المزيد من نار الحقد وتثبيت الأحكام المسبقة ضد الإسلام، وترسيخها في عقول الناس، وهذا هو الموضوع الحزين للفصل القادم.

❁ ❁ ❁

(١٣) Smith نقلاً عن Muslim World: Parvez Mansor ص ٦ و Book Review 14/4/1994.